(حمزة العرب) أكبر تحول في تاريخ الفن الروائي 2/2

كانت محاولة سيرفانتس تتمتع بقدر كبير من الذكاء حين سعت إلى فضح تلك الترهات في حكايات " فرسان الصليب" ، وسير الفرسان المشاة أو الجوالة وقصصهم بما لا يتقبله العقل والمنطق مدللاً على أن قدرات الإنسان الطبيعية لا يمكنها محاربة الجن ، أو غيرها من الخرافات ، وأن هذه الأوهام لا تفيد إلا في إفساد عقول من يقرأها أو يؤمن بها .

ومن هنا يمكننا اعتبار "دونكخوته " انحرافة فنية كبرى في مسار القص الإنساني ، ليس على سبيل التكنيك من الشفوية إلى الكتابية ، ولكن على مسار الاعتناء بالواقع ، بعيداً عما روج له الغرب من مقولات وأفكار كبرى ، رابطين بين ظهور فن الرواية وظهور "دونكخوته " ، زاعمين أنها حولت الرصد من عالم الآلهة وأنصاف الآلهة والخوارق الكبرى إلى الإنسان العادي ، هذا الذي قام بالثورة البرجوازية ، وأنهى الحقبة الإقطاعية ليستقبل الثورة الصناعية ومجتمع الحداثة ، في حين أن مجريات الواقع التاريخي تدلنا على أن عصر الحكاية عن الآلهة وأنصافها والصراع الدائر بينها الذي يحدد مصائر البشر على الأرض قد انتهى منذ زمن بعيد ، حتى إن التراجيديا اليونانية نفسها قد انتهت ، وظهرت فنون أخرى كان من بينها المقامات والقصص الشعبي وأدب الرحلات ، وكل ذلك كان مؤذناً بتطور فنون السرد إلى ما نسميه الآن الرواية ، ولم تكن الطبقة الوسطى ولا الثورة الصناعية ولا غيرها من مفردات الحداثة الغربية قد ظهرت إلا بعد ما يقارب المائتي عام من سيرفانتس ، ومن الصعوبة القول بنبوءة فنية ذات أبعاد زمنية طويلة كهذه ، كما أنه من الصعوبة اختصار ما يزيد على ألف عام من الزمان للربط بين اليونان وأوربا الحديثة كحضارة واحدة موصولة ودائمة ، فثمة إنجازات كبرى ، ومغذيات متعددة ومعقدة كانت الدافع لميلاد تحولات أكثر أعمقاً وأهمية ، من بينها تحول النص الأدبي من الشفوية إلى الكتابية ، ومن الفعل الجماعي إلى الفعل الفردي ، ومن الاحتفاء بالبطل إلى الاحتفاء بالأمة ، ومن الحديث عن الآلهة إلى النزول إلى الأرض ، فهذه الانحرافات لم تنتجها البشرية بين عشية وضحاها ، ولعل قصص " ألف ليلة وليلة " أعمق في إنسانيتها وأحلامها البشرية البسيطة من هزلية سيرفانتس ، لكنها جاءت عملاً جماعيًّا يُعبر عن مخيلة جمعية ، ولا نعرف مؤلفاً واحداً لليالي كي نقيم له فروض التكريم والاحتفاء على ابتكاراته السردية العظيمة .

ولعل إشكالية " ابن الأثير " كانت أكبر وأعظم ، فهو ليس قاصاً ، ولا راوية ، لكن مهنته كمؤرخ ، وخبرته الواسعة في سرد أحداث التاريخ أهلته لكتابة نص طويل ذي طابع ملحمي ، لكن إشكاليات زمانه كانت أعمق ، فقد كان من الأجدى له كتابة قصة ترد على

الفرس ولا تثير النزعة الشعوبية التي حرمها الإسلام ، وعليه أن يبرز ولاءه للخليفة العباسي الذي يعيش في كنفه ، وعليه أن يختار شخصية ذات سطوع تاريخي بحيث تلقى قصته صدى لدى الجميع ، وأن تكون هذه الشخصية رغم تاريخيتها بعيدة عن مجريات التاريخ الإسلامي من جانب ، وبعيدة عن وقائع الفعل التاريخي الذي سيراجعه فيه المؤرخون ، وعليه أن يكتب كتاباً سيضعه الوزراء والأمراء والنبلاء في مكتباتهم ، ثم يشيع تداوله بين العامة بعد ذلك ، وكانت شخصية "حمزة بن عبد المطلب " هي المخرج من كل هذه المصاعب الفردية والفنية ، وكان عليه أن يجردها من وقائعها بنسبتها إلى أمير يدعى إبراهيم ، وعلى نقيض السير يجيء الرمز الفني واضحاً وعالي الدلالة ، "فحمزة أسد الله وإبراهيم أبو الأنبياء " ، ومن ثم فهو لا يخبرنا من هو حمزة ، ولا من هو إبراهيم ، ويترك الأمر مفتوحاً للتأويل ، مما يسمح له بخلق شخصية فنية فريدة يمكنها أن تحقق شرط المنازلة بين قصته وقصة "فيروز شاه "، فمثلما تزوج فيروز "عين الحياة " ابنة الملك اليمني يتزوج حمزة "مهر دكار أو شمس النهار " ابنة كسرى ، وتأتي الصعوبة الأكبر في مواجهة نقطة ضعف يشهد بها التاريخ العام ، وهي سيادة الفرس على العرب قبل الإسلام ، وكذلك الفارق الحضاري الكبير بين الشعبين ، ومن ثم فزواج "شمس النهار " من البطل العربي البدوي يحاط بالدسائس ، ويصبح على البطل تحرير بلاده وقهر عدوه واعتراف الجميع بأنه ملك الملوك ، ولابد أن يسلك مسلك الملوك من ترفع وترف ورغد ، حتى يوشك على ضياع إمبراطوريته التي تضم الشام والجزيرة ومصر والسودان واليمن وأجزاء من إيران ، ومن ثم ينهض البطل من جديد ليستعيد ملكه ويقضي على ملك الفرس ثم يكتشف أن "شمس النهار" لم تقتل فيعفو عن أبيها كسرى ويعيد السلام إلى الأرض بعد أن يكون قد قضى على الأشرار ، ومن طبائع القصص التي كان لا بد أن يخضع لها " ابن الأثير" الجانب الملحمي البطولي واتساع مسرح الأحداث ، وهي المنطقة الإسلامية مترامية الأطراف ، والممالك المجاورة التي لا تدين بالإسلام ، التي تتعاون دوماً ضد البطل لهزيمته وكسره فيقوم هو بفتح هذه الممالك وهزيمة جيوشها وقتل ملوكها ، ويمكننا القول بأنها كانت طبائع ملحمية ذات صيغة حضارية كونية تشترك فيها عناصر غير بشرية كالجن سواءً الأخيار أو الأشرار ، وتقدم فيها الأحلام والنبوءات خدمات مهمة للبطل ، ساعد في خلقها عالمية الدعوة الإسلامية وتعدد جغرافيتها ، وهي جميعاً عناصر ثقافية على غاية من الأهمية كان لا بد أن تؤثر في فن ملحمي كالرواية والسيرة ، على أن هناك عناصر أخرى لا يمكن إغفالها تسربت إلى العرب عن طريق ترجمتهم للتراث اليوناني ، إلا أنه من الصعوبة القول بتطابق الملحمية لدى هوميروس مع الملحمية العربية كما تظهر في السير ، فثمة اختلافات عديدة أبرزها التقنية التي جاءت نثراً مضفراً بالشعر وليس نظماً شعرياً خالصاً ، كما أن تدخل الآلهة في مصائر البشر لم يعد موجوداً لاختلاف المرجعيات الدينية والفكرية ، واختفاء الشاعر الجوال وظهور الراوي المتربع على كرسيه في أحد المقاهي الشعبية سواء شُهر باسمه أو باسم سيرته التي يرويها ، ولم يظهر هذا الجوال إلا مع ظهور قصص

الفرسان المشاة الجوالين في أسبانيا ، ولعل حضور " ابن الأثير " هنا أكثر عمقاً وأشد ثراء في الدلالة ، فمن خلاله تحولت السير إلى فنون كتابيه بعد أن كانت شفوية ، ولم يعد الراوي بحاجة إلى أن يكون جوالاً ، أو حتى حاضراً لتقديم الحكاية ، لكن الأسبان والطبيعة الأسبانية ظلت تحتفي بعنصر التجوال والمشي ، فإن لم يكن عبر الراوي ـ هوميروس ـ فليكن عبر القديس الفارس .

وتوقفنا رواية " ابن الأثير " أمام عدد من الإشكاليات الأخرى ، أهمها مدى نسبتها إلى مؤلفها ، فثمة طبعتان لهذه الرواية " السيرة" ، كلاهما طبع في القاهرة ، الأولى عام 1962م وتقع في ستة مجلدات تشتمل على2880 صفحة من القطع المتوسط ، ويحمل غلافها (قصة الأمير حمزة الشهير بحمزة العرب تأليف أبي الحسن على بن الأثير الجزري صاحب كتاب الكامل في التاريخ ، وتحفة العجائب وطرفة الغرائب). مطبعة مصطفى البابي الحلبي . أما الطبعة الثانية فلم تحمل اسم مؤلفها ولا تاريخ طباعتها ، لكنها حملت عنوان (قصة حمزة البهلوان المعروف بحمزة العرب) وهي طبعة مكتبة الجمهورية لصاحبها عبد الفتاح مراد ، وجاءت في أربعة مجلدات تشتمل على 1200 صفحة من القطع المتوسط ،لكن العديد من الدلائل والمؤشرات وصيغ الألفاظ كالمصطلحات الإدارية والسياسية تدل على أن ثمة يدٍ قد تدخلت في إعادة صياغتها ، أو تحرير بعض جوانبها في الحقبة العثمانية ، كما أنها مختصرة قياساً إلى الطبعة الأخرى بما يزيد عن النصف ، كما أن عنوانها قد تغير إلى " قصة حمزة البهلوان المعروف بحمزة العرب " ، واختفى اسم مؤلفها ، لكن "إدور لين" حين زار القاهرة في منتصف القرن التاسع عشر أثبت في كتابه " المصريون المحدثون " أسماء رواة السير الشعبية التي كانت تروى آنذاك ، ما عدا سيرة "حمزة البهلوان " فلم يخصص لها راوياً محدداً ، مما يؤكد أنها ظلت عملاً أدبياً كتابياً تناقله الخاصة في مكتباتهم دون أن تتحول إلى سيرة شفوية يرويها الرواة في المقاهي الشعبية كما هي طبيعة هذا النوع من القصص ، وإذا كان ما نظنه قريباً من الصحة فمن الجلي أنها لم تلقَ قبولاً نظراً لتقنياتها الكتابية لا الشفوية .

وتعد حمزة العرب أو البهلوان الرواية" السيرة " الوحيدة التي احتفت بالسرد على حساب الشعر ، وتمثلت فيها جماليات النص الأدبي الكتابي بدءاً من الأسلوب السردي الراقي ، وصولاً إلى وحدة الموضوع ، وتوظيف الوصف لخدمة الأحداث ، وانعدام صيغ الحكاية المتعارف عليها في السير الشعبية أو الإحالة القولية ، وعلى الرغم من ضخامتها غير أننا لا نشعر بتغير الراوي أو اختلال الصياغة وانتظامها ، مما يجعلنا نظن بأن يكون مؤلف واحد توافر على سبكها بهذا الشكل ، وهي عمل مخطط له بشكل واضح ، حيث انتقالات البطل من مرحلة الوعي بوجوده السياسي إلى وجوده القومي إلى الوجود الكوني أو الحضاري ضمن سياقه الاجتماعي البشري ، كما أن مؤلفها قد أسس بنيان أحداثه على طريقة الاستنتاج أو

الاستدلال المنطقي ، مما يؤكد أنه من طبقة النخبة المثقفة التي تحتكم إلى المنطق وتغلبه على الصدفة أو الخرافة واعتباطية الحدث ، بالإضافة إلى أنها من أقل السير لجوءاً إلى الجن والسحر وغيرها من الأساطير أو التقنيات التي سادت في قصص العوام وسيرهم الشفوية ، وهو ما يعني أن مؤلفها كان متوجهاً بخطابه إلى فئة أو نخبة بعينها ، وهي طبقة الخواص العارفين بالكتابة المستقين معارفهم من الكتب التاريخية والفقهية والعلمية وليس العوام الراغبين في السماع وتغذية الخيال بالخرافات ، فإذا أضفنا إلى ذلك كله شخصية البطل المختارة بعناية من بين الرموز " الأبطال " الإسلاميين ، وتعميمه فنياً وتاريخياً بنسبته إلى أمير مكة الذي يحمل اسم : إبراهيم ، وليس عبد المطلب ، مما يتيح للمؤلف التخلص شرك التاريخ الرسمي ومجاملة ذوي نعمته العباسيين ، ليتمكن من تمرير خطابه المنطوي على جملة من القضايا شديدة الحساسية كالشعوبية التي رفضها الإسلام دون أن يؤخذ ذلك عليه ، فحين نتأمل بعمق كل حيثيات هذا النص الإشكالي يتضح لنا كم هو عمل أدبي مخطط له بعناية فائقة ، وإذا كانت هذه القصة قد كتبت صدى لترجمة ابن الفتح البنداري لشاهنامة الفردوسي التي طلبها منه الملك العادل في دمشق أدركنا أنها كانت موجهة لأن يقرأها الخليفة بنفسه وربما أرسل نسخاً منها لبعض الملوك من أمثال العادل في دمشق ، بما يعني أنها عمل فني كتابي من البدء يمثل الانحرافة الكبرى والأهم في تاريخ القص الإنساني بدءاً من الخرافات ومروراً بالملاحم ثم السير ثم الرواية إلى اللارواية عند مارجريت دورا .